السنة السادسة العدد ٦٧ ـ رمضان ١٤٠٢هـ ـ يوليو ١٩٨٢م

الدوحة

مجلة شهرية ثقافية جامعة
ملتقى الابداع العربي والثقافة الانسانية

- أنصاف الشاعرين — قصة جديدة للدكتور يوسف إدريس
- محنة الضمير العلمي في الجامعات العربية

منذ ثلاثة آلاف سنة : القدس هي القضية

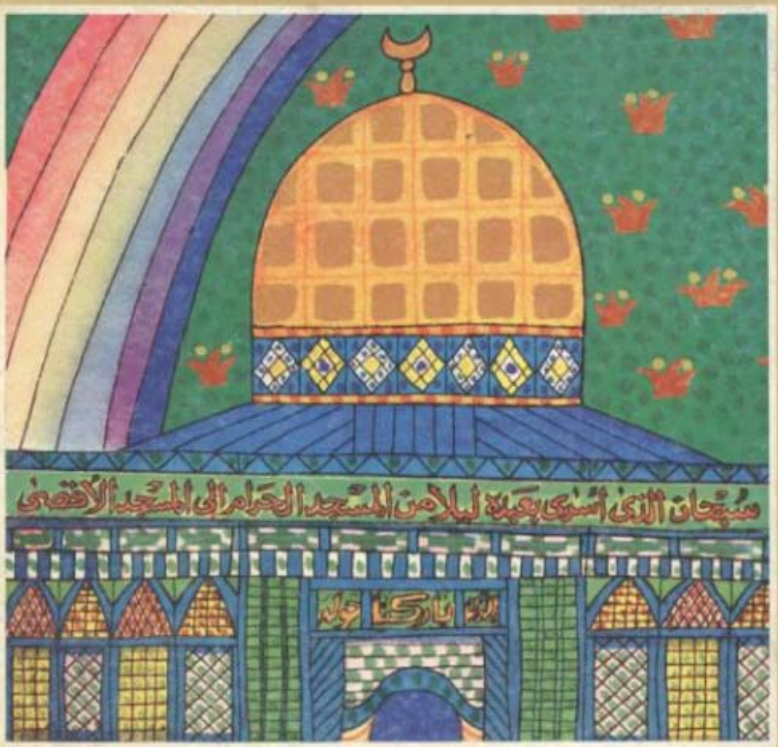

مع العدد
هدية : لوحة القدس

عبد الكريم بن ثابت

شاعر وجودي من فاس

بقلم : عبد الكريم غلاب

عاش عمراً قصيراً عب فيه من الحياة حلوها ومرها . فلم يكن يحفل للحياة كثيراً . كان يعنيه فقط ان يرضى نفسه وضميره ، فى النضال .. او فى الحب . ولم يكن يهمه ان ينجح هذا الحب . يكفيه انه يغنى فى الجمال . وانه عاشق للحياة حتى .. الموت !!

عشرون سنة مرت على وفاة الشاعر المغربى عبد الكريم بن ثابت .

وتعود بى الذاكرة الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ونحن يومئذ فى القاهرة نفتح اعيننا على عالم جديد ، العالم الذى ستفرزه الحرب : عالم مشرق ؟ ام هو الظلام الذى رمى بالانسانية الى اتون الحرب سيمد جناحيه من جديد على الافاق التى اظلمت نفوس الانسانية فيها من جراء الظلم والاستعمار والاستغلال ؟

وكان عبد الكريم بن ثابت من الشبان المغاربة الذين تخرجوا من كلية الآداب بالقاهرة ، وهو منهم ينطلع الى حرية بلاده ويعمل مع المجموعة ضمن «رابطة الدفاع عن مراكش» ليحقق لبلاده الحرية التى ينشدها شعبها . ولم يكن يقف من الحرية موقف المتردد ، وهو الشاعر الذى يهيم فى شاطىء النيل يناجى القمر المنير فى سماء القاهرة الصافية ، ولم يكن ينسى حرية بلاده وهو العاشق الولهان الذى يترك حبات قلبه عند معبد الحب فى مصر الجديدة أو التبنا القديمة ...

ومن صميم قلبه الشاعر هتف :

اتراه فى يديا ام ترى فى قدميا
ذلك القيد الذى يضحك منى وعليا
ودموعى كلما ارسلتها من مقلتيا
شرب الدمع ولما يروه دمعى ربما
اين ذاك القيد اين ؟

عبد الكريم بن ثابت

اتراه اليوم عين ؟

ونشرت القصيدة «مجلة الكاتب المصرى» التى كان يصدرها العميد طه حسين ، وتلقفتها مجلة ادبية فرنسية تصدر فى باريس وكتبت عن الشاعر الوجودى المغربى ، والوجودية يومئذ المذهب اللامع بين المذاهب الفلسفية ـ الادبية فى سماء اوربا . وكانت المجلات الفرنسية تتلقف النماذج الادبية لهذه المذاهب التى افرزتها الحرب ، والتجأ زعماؤها اليها يتلمسون فيها حلا للمشاكل الانسانية والفكرية التى عمقتها الحرب ولم تحلها .

تكامل الصورة

لفت الشاعر اليه انظار قراء الشعر الجيد فى الوطن العربى ، كما لفتت الحركة السياسية والنضالية فى المغرب انظار المناضلين الى هذا البلد الذى تعود من جديد يناضل من اجل الحرية ويسعى للاستقلال .

فى المغرب نضال وطنى قومى سياسى . فى المغرب شعراء ينشدون الشعر الجيد.

تكاملت الصورة فى جزء من بهائها ، ومن خلال هذه الصورة البهية دخل المغرب نادى الوطن العربى متحديا الارادة الاستعمارية التى كانت تسعى لان تظل ابواب هذا النادى مقفلة فى وجهه .

ونالت قصائد الشاعر فى المجلات المصرية ، وبلاده يومئذ لا تملك مجلة يخاطب من خلالها قراءه ، ولكنه كان معروفا فى المغرب وهو بعد طالب ينشد شعر الحب والجمال فى طابعه الرومانسى الحبيب الى نفس قراء ذلك الزمان .

وظل عبد الكريم بن ثابت يحسن الى هذا الاسلوب الرومانسى وهو ينشد شعرا فكريا فلسفيا مناضلا . القيد الذى

● لم يكن يقف من الحرية موقف المتردد .. وهو الشاعر الذي يهيم في شاطئ النيل ومناجاة القمر

● توالت قصائد الشاعر في المجلات المصرية . ولم تكن بلاده يوم نالت تمثال مجلة يخاطب من خلالها قراءه

تساءل عنه في مطلع القصيدة : اتراه في يديا ام ترى في قدميا مايزال يعمق البحث عنه . يجول في الآفاق ليكتشف مكانه :

هو في الفكر وقد ران عليه من زمان
قبل ان يوجد إنسي على الأرض وجان
قبل ان نعرف : ما الغز وما ثقل الهوان ؟
قبل ان نعرف : من نحن وفي اى مكان ؟
اين ذاك القيد اين ؟
اتراه اليوم عين ؟

في هذا المقطع ـ الصورة يتخلص الشاعر من الذات الى الفكر ، الى التاريخ الى ما وراء الانسان .

في الصورة الأولى يبحث عن اثاره في يديه ، في قدميه ، في سخريته منه ضاحكا ملتذا بدموع الشاعر ، بل انه يلتهم دموع الشاعر ولا يرتوى .

الشك هو طابع التعامل مع هذا القيد الذى يملأ الآفاق ، يسلب الحرية من الكون والكائن ، ثم هو لا يبين : هو في اليدين ؟ في القدمين ؟ ضحكاته الساخرة ترن في الآفاق ، متعطش لا يرحم حتى دموع الشعراء ، بعيد بمقدار ما هو قريب :

اين ذاك القيد اين ؟
اتراه اليوم عين ؟

تبدأ الصورة بالتساؤل وتنتهي بالتساؤل .

وتلك ماساة الانسانية .

وتبلغ المأساة عمقها حينما يدرك الشاعر انه ليس الضحية الأولى : القيد في الفكر قبل ان يوجد إنسي على الأرض وجان ، قبل ان نفرق بين العز والهوان ، قبل ان نعرف من نحن ؟ وفي اى أرض نعيش ؟ .

ويعمق الشاعر المأساة فيقدم صورة اخرى اكثر روعة :

هو في الروح التي ما عرفت قط السكينة
هو فيها قبل ان تظهر في الأرض حزينة
هو فيها قبل ان توضع في الجسم سجينة
رابض فيها كليث ثائر يحمي عرينه
اين ذاك القيد اين ؟
اتراه اليوم عين ؟

ماساة الحياة وهي تاسر الروح ، فما عرفت بعد ذلك سكينة في الأرض ، الروح المتمردة في سجنها الجسمي ، الثائرة ، المرتدة الى حزنها امام طغيان الحياة التي احتوتها كما لو كانت ليثا غاضبا ثائرا يحمي هذا السجن الكبير ، وهي ـ القيد ـ مع ذلك تدعو الى التساؤل :

اين ... اتراه عين ؟ .

وتنتهي الصورة بالاستسلام ، بانهزام الانسان امام القيد الأبدي : الحياة ، قيد ثقيل لا حيلة للانسان في الانعتاق منه . ويستسلم بعد ان بح صوته في النسال :

اه من سر خفي مبهم مثل الضباب
اه لو يسعفني اليوم وقد حم المصاب
انا في الدمع غريق وهو في الصمت مذاب
بح صوتي وانا اسأله بعض الجواب :
اين ذاك القيد اين ؟
اتراه اليوم عين ؟

مجموعة من الصور الفلسفية ، تعلبعها شاعرية فضيلة ، يتراوح اسلوبها بين التقرير الذى توحي به الفكرة ، والتصوير الذى يوحي به الفن ، والتساؤل الذى يكشف عن جهل الانسان وعجزه عن ان يكشف أسرار الكون ، والتراوح بين الحديث عن النفس ـ التجربة ـ الذى تبدأ به القصيدة : في بديا .. في قدميا .. كنت منذ جئت الى الأرض اغنى للجمال ... وينتهي بنفس التجربة : انا في الدمع غريق .. بح صوتي ، وبينهما يهيم الشاعر في الكون .. في النور ... مع الحبيبة وهي تروى قاصيصها .. في الفكر .. في الروح ... وينتهي به المطاف الى السر الخفي الغارق في الضباب : الضباب الذى توحي به هذه اللازمة الآسية المؤنسة التي تنتهي اليها كل صورة في كل فقرة . لازمة يصطدم بها القارىء اذا كان من الذين يطمعون ان يحل لهم الشاعر أسرار الكون ـ القيد ...

اتجاه وجودى

.. في القصيدة اتجاه وجودى يبلوره هذا الاحساس الشاعر بالقلق على كل مقومات الانسان : الفكر ، الروح ، العمل ، الغناء للجمال ، القلق من الشعور بالقيد دون ان يعرف الانسان : اين هو ؟ ما مصدره ؟ هل له وجود محسوس تشهده العين ؟ الشاعر يحس بمسئولية امام الكون ، امام نفسه ، إمام مشاعره ، امام فكره . ولكن القلق يغمره على مصير هذه المسئولية ، وينتهي به الى الاستسلام كما استسلم الانسان منذ ادرك وفكر وفلسف الحياة ، والتجا اخيرا الى الغيب والى التساؤل : اين ؟ والى اللاجدوى من السؤال .

في هذا الاطار الفلسفي عاش الشاعر نوعا من التناقض الذى هو الحياة الحقيقية للانسان المفكر منذ كان الفكر . كان عبد الكريم بن ثابت يلهب ظهر الحياة وهو يسعى في يومه مناضلا مع المناضلين ، ومفكرا في قضية بلاده ، وعاملا بقدر ما يستطيع ـ مع العاملين ـ ليحققوا لها الحرية فيصطدموا بالقيد . وفي ليله يلجأ الى حياة الشاعر ، يقرأ الشعر في الوجوه الصباح ، في النجوم ، في القمر المبهى يتلألأ على صفحات مياه النيل الرقراق ، في الفلك تسلم عنانها للريح الرخاء ، ووراء مقلاعها صوت حنون يغني وحيدا مع الليل والنهر والقمر والنجوم والسماء ، جائع ، شبعان . لا يدرى ولا يود ان يدرى . ويعود الشاعر الى بيته وفي قرابه اكثر من قصيدة . في ليله الحافل بالجمال يعيش مع حبيبته تلك التي تركها في فاس تفصلهما آلاف الأميال وسنوات الحرب . مع الجميلة التي اطلت عليه في سماء الكلية بعينيها الخضراوين ، لونها القمحي ، شعرها الأشقر . واختفت فلم يعرفها بعد مدرج ولا فتحت عينيها

عبدالكريم بن ثابت

شاعر وجودي من فاس

الجميلتين على كتاب . مع بنت «الأكربول» الفاتنة ذات العينين الحافلتين بالعمق ، الوجه الشاحب في بياضه كأنما صبت الحياة في أجمل تمثال صنعه فنان الشعر السبط الناعم المندفع في حيويته . ويذكر الليلة الراقصة التي أسفرت عن صباح ... عن الصباح الذي ادرك شهرزاد ... عن الحياة الأسرة . وكان «ليل ... وصباح» عنوان قصيدة اخرى من نفس مستوى «قيد» :

سهرت وكان شعاع القمر
ينام ويحلم فوق الغصون
وبت اشاهد ظل الشجر
كأني اشاهد بعض الظنون
ونام الأنام وحل السهر
لمن التفتة سبيل الفنون
ومن بات يشكو الأسى والضجر
ومن قاده الحب نحو الفنون
ومن ظل يطلب خير البشر
ومن البسوه رداء الجنون
وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف الغضي السنين
فبات بصمت عميق رهيب
وفاضت دموعي وهل تنفع

هكذا يحيي الشاعر حياته بكل ابعادها في السهر مع شعاع القمر ، مع الآمال والآلام ، مع الحب ، مع الأسى والضجر ، مع العقل والجنون ... ويسأل : لماذا وكيف الغضي السنين ... ؟ فلا مجيب إلا الصمت العميق الرهيب .

صور الحياة

ويطوف خيال الشاعر مع صور الحياة في جمالها وقبحها في خيرها وشرها ، في تناقضاتها وعنف جحودها ويصطدم مع هذه الصورة :

هناك شيخ وقور جليل
لقد مات ـ رباه ـ صوت النديم
هناك طفل وديع جميل
يعذب مثل الشقي الأثيم
وحب شريف وقلب بعيل
الى الخير يشقى بنار الجحيم
وبغض عنيف وروح ثليل
وضيع يلاقي حظوظ العظيم
حياة قد امتزجت بالعليل
من الحق مثل امتزاج القويم

وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف الغضي السنين ؟
فبات بصمت عميق رهيب
وفاضت دموعي وهل تنفع

دفقات قوية من المشاعر الانسانية تملأ خيال الشاعر وهو يقتبس صور الحياة ومفارقاتها واقاقها البعيدة والقريبة في الزمان والمكان ، في

عاش عبد الكريم بن ثابت عمرا قصيرا عب فيه من الحياة حلوها ومرها . ولم يكن يحفل للحياة كثيرا . كان يهمه أن يرضي نفسه وضميره ، في النضال او في الحب ، لا يهمه أن ينجح هذا الحب . فهو عاشق الى الأبد . يغني في الجمال . تمثل الجمال في هذا الوجه او ذاك سيان ، تمثل في الطبيعة ، في السماء ، في القمر ، في النهر ، في صوت جميل يغني ، في هزار فريد يغرد ، في كل مكان عاش فيه يبحث عن سر الجمال لا عن متعة الحياة . بحث عن سر الجمال في فاس (مسقط رأسه حيث عاش طفولته وجزءا من شبابه) في ضواحيها الجميلة ، بحث عنه في القاهرة (ملجاء الثناء دراسته ونضاله) في ضواحيها وشاطئ نيلها وحدائقها واسمارها ، بحث عنه في الرباط (مركز عمله لفترة من حياته) بحث عنه في تونس (حيث عمل في سفارة المغرب بها بعد الاستقلال) في ضاحيتها الجميلة سيدي بوسعيد ، في سواطئها الفاتنة : سوسة ، الحمامات ، مونستير .

كانت آماله في الحب والحرية اكبر من دنياه وأطول من عمره . واصطدمت آماله فلم يبق له من دنياه غير ما صوره في قصيدة آسية :

املي من رمالك من عليباء
بعدما قد ألفت جو السماء
ما دهاني وقد تضاءلت في عيني
واصبحت ضيق الارجاء
ما ارى فيك غير شكل كئيب
مفعم بالشجون والبأساء
وعجوزا اراك حطمها الدهر
تهادى من ضعفها في انحناء

الشيء الذي كان يؤرق الشاعر هو هذا السجن الكبير ، هذا الوجود المثقل بالآلام والآثام يأسر الروح ويطغى بظلمه على العدل ، يبغضه على الحب ، يظلامه على النور . وكثيرا ما صور هذا الطغيان في شعره «بائع الذكريات» احدى روائع ديوانه «ديوان الحرية» يحكي فيها قصة شريد يحاول ان يقايض كل ذكرياته في الحياة بنهر النسيان . القصة ـ القصيدة تبدأ هكذا :

كان مساء ... وكان برد وهواء
وكان صوت العاصفة يدوي في الفضاء
وكان صديقي يسير مخيفا كالشبح

الشاعر بين الرئيس بورقيبه والخليفة سليم ممثل تونس في الأمم المتحدة

منتصبا كافكار المتشائمين والظلمة حوله كثيفة كئيبة توحى الحزن وتبعث الهلع قابلته صدفة

قال لي ، والدموع تنهمر من عينيه :

النفس والروح ، فى الحياة والجماد ، فى الفناء والخلود ، فى العقل والجنون ، فى الوفاء والجحود ، فى الضياء والظلام ، ويسأل اخيرا : لماذا ؟ وكيف اقضي السنين ؟ فلا يجد الرحمة حتى من نفسه بين جنبيه ، تبوء بالصمت العميق الرهيب . ولا يجد بين يديه غير دموع الأسى .. وسرعان ما يسأل : وهل تنفع ؟

ليل داج عاش فيه الشاعر حتى يكاد لا يجد غير اليأس القاتل والدموع التى لا جدوى منها . ولم يكن عبد الكريم بن ثابت من الذين يستسلمون لليأس القاتل فاهتدى . وانهى القصيدة الرائعة بهذا المقطع :

وبعد زمان ... اطل الصباح
كطفل على مهده يبسم
كعذراء بين مروج البطاح
تتيه وترقص او تحلم
كثغر الورود كحد الاقاح
على حزن ضاحك ينعم
ونادى المنادى : الكفاح ، الكفاح
وداووا به ياسكم تسلموا
فما من سلام وما من نجاح
بغير الجهاد فلا تسأموا
وناديت يا نفس هل تعلمين
لماذا وكيف قضي السنين ؟
فقلت : لاجل الخلود الحبيب
تعيش وتخلق ما ينفع
بنير دياجى هذا الاجل
جهاد وحب وصدق الامل

الشاعر الفيلسوف ضالته به الحياة وهو يتجول فى ابعادها .

المناضل الفيلسوف ينتصر فى الاخير كما ينتصر الصباح الجميل كطفل ، كوجه عذراء ، كثغر ورود ، كحد الاقاح على ظلام ليل عبوس قاتم . ويجد دواء اليأس فى الجهاد والنضال والحب والامل الصادق.

بحث الشاعر طويلا عن سر الحياة فى رقفات شعرية قوية فكرية وفلسفية . واكتشف الصباح بعد الليل المدلهم ، كان صباحه اقوى من ليل الحياة . وكان الاجابة الواضحة عن القيد الذى ظل

● الشيء الذي كان يؤرق الشاعر هو هذا الوجود المثقل بالآلام والآثام والظلام والبغض !

يسأل عن اسراره فلم تنكشف له ، لأن عينا لا تراه ولأن احدا لا يعرف اين ؟

يمثل هذا النغم قلق عبد الكريم بن ثابت يغنى نحوا من عشرين سنة فى عمره القصير غنى لهن جميعا ... وغنى للحقيقة ينشدها :

ترى اين ولى ؟ وكيف اختفى
افى مهمه الغاب والظلمات
ومن ذا يغنى وينشد فى
سكون عميق جمال الحياة
ومن ذا الذى تحتويه العيـ
ـون وتاسره تلكم النظرات
يعربد فى الليل مثل الهزا
ر ليقتل فى جوفه السكنات

وغنى لثورة بلاده :

ايها المستبد فى عالم غفل
وفى عالم كثير العناء
مر من ها هنا اخوك وقد كان
مخفيا فى قوة ودهاء

اغنية للخلود

غنى للخلود فى قصة اندماجية رائعة ، ظن وصحبه انهم قد خرجوا من دنيا الناس :

وجهلنا الأرض والناس وما
بات فوق الارض من ذل ودون
ورياء وهوان وشقاء
وسموم واحتراب وفتون
ها هنا نحن تخطينا الدنا
وتحدينا المآسى والمنون
حسبنا ان ما ياسرنا
من زمان مات فى ارض السنين
تلكم الارض وما اشأمها
نحن فيها فى قيود وسجون
كلما طاقت بنا صورتها
ارعبتنا وكانا فى جنون
انه سجن كبير قيده
هذه الاعمار بئست والسنون

لتشترى منى ذكرياتى ؟
قلت بكم يا صديقى ؟
قال : بنجمة لامعة وكوب مضيء ينير لي السبيل علّي اعثر على نهر النسيان .

التخلص من القيد

تسير القصة ـ القصيدة هذا المسار يبحث فيها «الشريد» عن نهر النسيان يسأل عنه الشيخ العجوز ، والرجل الكالح الوجه ، والجمال الذاوى الذى امتصت السنون بهاءه والصديق رفيق الصبا .. حتى اذا اعياه البحث بدا له بصيص من نور سار فى اثره وهو ينشد عند الهداية :

صاح النور : اتبعنى ايها المسكين
فسادلك على نهر النسيان
ومضى النور وصاحبى يسيران
وحدهما فى ليلة حافلة بالاحزان
ووسيلتهما ركوب متن الزمان
اه من الزمان ...
اه من الزمان ...

القصة بسيطة يؤكد فيها الشاعر مذهبه فى التخلص من القيد الذى يتخلص منه رغم طول اناة ، من العالم المليء بالآلام ، من الوجود المثقل بالآثام ، ولكنه لا يفر من القيد إلا إليه ... حتى النسيان لا يجد سبيلا اليه إلا الزمان .

عاش الشاعر حياته كما ارادها شاعرا ينشد قصائده ، يكتبها ويعتز بها ثم لا يلبث ان يهملها فى اوراق ممزقة ، فى مجلات مبعثرة عاش للشعر قولا وحياة . عاش للحب ، ولم يرس شراع حبه على شاطىء ، تخلى عن كل شيء ، عن الاصدقاء كما كان يهمل كل ما حفلت به حياته حتى اشعاره ، تخلى عن كل شيء ودخل مستشفى عموميا فى الرباط اثر نوبة كبد ...

بعد بضعة ايام لم تكتمل اسبوعا كانت إدارة المستشفى تبحث عن احد من اصدقائه لتخبره انه مات ... فريدا وحيدا من كل من ربط بهم حياته العملية ، حياته الشعرية ، حياته البوهيمية . وظل شعره ينبض بالحياة . بعد أن ودع الحياة .

رحمه الله .

عبد الكريم غلاب